

## الفصل الثاني

### المسيحيون في القرآن

"... وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بَأَن مِّنْهُمْ قَسِيصِينَ وَرَهَبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ" (المائدة 82)، بدون أن يدري أكثرنا أن هذه الآية تستكمل معناها بالآية اللاحقة بها مباشرة، وأن معناها الحقيقي ندركه عندما نعرف سبب نزولها. وهذا ما سنراه بعد قليل.

### انطلاقة الدعوة

عندما بدأ محمد دعوته في مطلع القرن السابع للميلاد، كان الناس في شبه الجزيرة العربية من حضر وبدو، ينتمون، دينيا، الى الوثنية والنصرانية (اي المسيحية) واليهودية.

وكان الواقع المسيحي ممزقا. وعلى هذا النحو تعرّفته الرسالة الجديدة في شبه الجزيرة على أطرافها وفي البلاد التي ستحتلها في الفتح الكبير. "ومن الذين قالوا إنّنا نصارى أخذنا ميثاقهم فنسوا حظا مما ذكروا به فاغرينا بينهم العداوة والبغضاء..." (المائدة 14). "... وأتينا عيسى ابن مريم البيّنات وايدناه بروح القدس ولو شاء الله ما اقتتل الذين من بعدهم من بعد ما جاتهم البيّنات ولكن اختلفوا فمنهم من آمن ومنهم من كفر ولو شاء الله ما اقتتلوا ولكن الله يفعل ما يريد" (البقرة 223)

### الاسلام يقوم انحراف أهل الكتاب

المسيحيون واليهود، في نظر القرآن، هم أهل الكتاب، اي الذين الله لهم كتابا مقدسا من عنده، يرشدهم ويحدّد لهم ما يؤمنون به ويعملون له ويرتدعون عنه. فالتوراة والإنجيل كتابان مقدسان بالنسبة للاسلام. والإيمان بهما واجب ليكمل إسلام المسلم. "قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل الى ابراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والإسباط وما أوتي موسى وعيسى وما أوتي النبيون من ربهم لا نفرّق بين أحد منهم ونحن له مسلمون" (البقرة 136)

لذلك أمل الرسول أن يتقبّل أهل الكتاب الدعوة الجديدة قبل غيرهم بسهولة ويسر. لذا تضمّن القرآن الأسلوب المحبب والرغبة في التفاهم من أجل الاندماج في الدين الجديد. "لا إكراه في الدين" (البقرة 256). "ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن إلا الذين ظلموا، وقلوا آمنا بالذي أنزل الينا واليكم وإلهنا وإلهكم واحد ونحن له مسلمون" (العنكبوت 46). "قل يا أهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم ألاّ نعبد إلاّ الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله، فإن تولّو فقولوا إشهدوا بأننا مسلمون" (آل عمران 64). وعلى هذا الأساس أعطى محمد ميثاقه وعهده الى يهود يثرب. ولكن هذا العهد لم يطبّق.

ومما عزز الأمل لدى محمد في قبول أهل الكتاب الدين الجديد، كون هذا الأخير يقوم ما "أدخله" أكثر اليهود والنصارى من تحريف (!) وتغيير (!) وإخفاء (!) نصوص في التوراة والإنجيل. فالرسالة المحمدية "تعيد" هؤلاء إلى الصراط المستقيم. "يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم كثيرا مما كنتم تخفون من الكتاب ويعفوا عن كثير قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين" (المائدة 15). "قل يا أهل الكتاب لستم على شيء حتى تقيموا التوراة والإنجيل وما أنزل اليكم من ربكم وليزيدن كثيرا منهم ما أنزل اليك من ربك طغيانا وكفرا فلا تأس على القوم الكافرين" (المائدة 68).

ثم يبين القرآن لأهل الكتاب ما الذي خرجوا فيه عن الدين الحق الذي أراده الله. ففي ما يتعلق بالمسيحيين تقول الآيات: "إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته القاها إلى مريم وروح منه فآمنوا بالله ورسوله ولا تقولوا ثلاثة انتهوا خيرا لكم إنما الله إله واحد سبحانه أن يكون له ولد. له ما في السماوات وما في الأرض وكفى بالله وكيلًا" (النساء 171). "وإذ قال الله عيسى ابن مريم أنت قلت للناس اتخذوني وأمي الهين من دون الله قال سبحانك ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق إن كنت قلته فقد علمته تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك إنك أنت علام الغيوب" (المائدة 116). "قل هو الله أحد. الله الصمد. لم يلد ولم يولد. ولم يكن له كفوا أحد" (سورة الاخلاص). "يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم ولا تقولوا على الله الا الحق.. (النساء 171). والمقصود بعبارة "لا تغلوا في دينكم" أن لا تجاوزوا الحد في دينكم فترفعوا عيسى من مرتبة الرسالة النبوية إلى مرتبة الألوهة.

ومما يفرض على المسيحيين قبول الدين الجديد كون المسيح نفسه، على ما يقول القرآن، قد وعد بمجيء محمد بعده. "وإذ قال عيسى ابن مريم يا بني إسرائيل إني رسول الله إليكم مصدقا لما بين يدي من التوراة ومبشرا برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد. فلما جاءهم بالبينات قالوا هذا سحر مبين" (الصف 6). ولفظة "أحمد" يقول الشيخ حسنين محمد مخلوف "هو علم لنبينا صلى الله عليه وسلم ومعناه: أحمد حامدين لربه. بشرت به وبرسالته الخاتمة للرسالات السماوية: التوراة والإنجيل اللذان لم يحرفا ولم يُبدلَا على لسان موسى وعيسى عليهما السلام"<sup>1</sup>.

### الإسلام يكسب بعض المسيحيين

لاقت الدعوة الجديدة بعض القبول في مكة أولا، أي قبل الهجرة. ثم بعد الهجرة. وقد أحسن القرآن الكلام على الذين تقبلوا بشارة محمد. "والذين أتيناهم الكتاب يفرحون بما أنزل اليك... (الرعد 36). "... والذين أتيناهم الكتاب يعلمون انه منزل من ربك بالحق فلا تكونن من الممترين" (الانعام 114).

"ان الذين اوتوا العلم من قبله اذا يتلى عليهم يخرون للأذقان يبكون ويزيدهم خشوعا" (الإسراء 108 – 109). "لكن الراسخون في العلم منهم والمؤمنون

<sup>1</sup> الشيخ حسنين محمد المخولف، القرآن الكريم ومعه صفوة البيان لمعاني القرآن، ج2، ص 428

يؤمنون بما أنزل اليك وما أنزل من قبلك والمقيمين الصلاة والمؤتون الزكاة والمؤمنون بالله واليوم الآخر أولئك سنؤتيهم اجرا عظيما" (النساء 162).

وأهمّ كلام تحبب للمسيحيين هو ما جاء في الآيات التالية: "لتجدنّ أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا، ولتجدنّ أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا وإنهم لا يستكبرون. وإذا سمعوا ما أنزل الى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق يقولون ربنا آمنا فاكثبنا مع الشاهدين. وما لنا لا نؤمن بالله وما جاءنا من الحق ونطمع أن يدخلنا ربنا مع القوم الصالحين" (المائدة 82 – 84).

يقول الشيخ مخلوف في شرحه لهذه الآيات: "لتجدنّ أشد الناس... أي لتجدن أشد الكفار عداوة للمؤمنين اليهود، لشدة شكيمتهم وتضاعف كفرهم، وانهماكهم في اتباع أهوائهم وتمرتهم على التمرد، والاستقصاء الى الأنبياء، وتمكن الحسد والبغي في قلوبهم، الى حدّ استيجاب إيصال الأذى والشر الى من خالفهم في الدين. وقد جعلهم الله قرناء المشركين في شدة العداوة للمؤمنين، بل هم أعرق فيها ولذا قدّموا في الذكر عليهم. "ولتجدنّ أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى": فهم ألين عريكة وأسلس انقيادا الى الحق وفيهم من هو معرض عن الدنيا ولذاتها والتنافس فيها، ومن كان شأنه ذلك لا يحسد الناس ولا يعاديهم. والآية نزلت في النجاشي (لقب ملوك الحبشة) وأصحابه. وقيل في الوفد الذين قدموا مع جعفر ابن ابي طالب مسلمين. وقيل: في جماعة أهل الكتاب كانوا على شريعة من الحق مما جاء به عيسى عليه السلام. فلما بعث محمد صلى الله عليه وسلم، آمنوا به وصدّقوه فأتى الله تعالى عليهم في هذه الآية"<sup>2</sup>.

إذا، المديح الذي تكيله الآيات أعلاه للنصارى لا يطال جميع النصارى، بالمعنى المطلق، كما يعتقد بعضهم، بل هؤلاء الذين آمنوا برسالة محمد ودخلوا في الدعوة الجديدة. لذلك يكون الاستشهاد بها للبرهنة على أن الاسلام يكنّ للمسيحيين، جميع المسيحيين، وفي جميع الأزمنة، هذا التقدير والاحترام مع اعتبارهم أقرب الناس الى المسلمين، هو في غير محله، وليس مخلصا للقصد القرآني نفسه.

### كفر سائر أهل الكتاب وشركهم

مقابل الذين قبلوا الدعوة الجديدة آخرون بقوا على إيمانهم، ولم يبدووا الاهتمام الذي كان الرسول ينتظره. فأخذت لهجة الآيات تتعالى من المرارة الى التهديد والوعيد. ثم أخذت تعلن صراحة كفر أهل الكتاب وشركهم.

"لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم. وقال المسيح يا بني إسرائيل إعبّدوا الله ربي وربكم إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار وما للظالمين من أنصار. لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة وما من إله إلا إله واحد وإن لم ينتهوا عما يقولون ليمسّنّ الذين كفروا منهم عذاب أليم" (المائدة 72 – 73). "لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم. قلّ فمن يملك من الله شيئا إن أراد

<sup>2</sup> المصدر السابق، ج1، ص 203

أن يهلك المسيح ابن مريم وأمه ومن في الارض جميعا والله ملك السماوات والارض وما بينهما يخلق ما يشاء والله على كل شيء قدير" (المائدة 17). "سبحانه وتعالى عما يشركون" (النحل 1). "قل للذين كفروا أن ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف وأن يعودوا فقد مضت سنة أولين" (الأنفال 38). "أن الذين يكفرون بالله ورسله ويريدون أن يفرّقا بين الله ورسله ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلا، أولئك هم الكافرون حقا واعتدنا للكافرين عذابا مهينا" (النساء 150 – 151). "وقالت اليهود عزير ابن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله. ذلك قولهم بافواهم يضاهنون (يشابهون) الذين كفروا من قبل قاتلهم الله أنى يؤفكون" (يصرّفون عن الحق الى الباطل) (التوبة 30).

فالمسيحيون المؤمنون بألوهية المسيح كفار ومشركون. فهم كفار لانهم جحدوا رساله، رسالة المسيح الاساسية التي، في ظن الاسلام، قد حورّها المسيحيون وزورواها. وهم مشركون لأنهم، في نظر الاسلام، ايضا، "اشركوا" بالله آلهة آخرين.

يقول الشيخ مخلوف: "فاعتقاد النصارى القتل والصلب كفر لا ريب فيه"<sup>3</sup>. ويقول ايضا: "فإن النصارى أشركوا بزعم الوهية المسيح"<sup>4</sup>.

### وجوب قتل الكفار والمشركين

إذا كان هؤلاء المسيحيون كفارا ومشركين، فإن مصيرهم مصير الكفار والمشركين. فما هو هذا المصير؟

"فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم، وخذوهم واحصروهم واقعدوا لهم كل مرصد. فإن تابوا واقاموا الصلاة وأتوا الزكاة، فخلوا سبيلهم" (التوبة 5) "وأن طلبوا الأمان فيجب تأمينهم وإبلاغهم اليه شرط أن يسمعوا كلام الله وإلا يجب قتالهم مجددا: "وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه" (التوبة 6).

"قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين اتوا الكتاب حتى يُعطوا الجزية عن يدٍ وهم صاغرون" (التوبة 29). يقول الشيخ مخلوف في شرحه هذه الآية: "قاتلوا الذين لا يؤمنون": أمرٌ بقتال أهل الكتابين بعد الأمر بقتال المشركين، بسبب أنهم لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر، وإيمانهم الذي يزعمونه كلاً إيمان. "ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق": وهو دين الاسلام، وهو الدين الذي ارتضاه الله لعباده. "حتى يعطوا الجزية": وهي ما قدر على رؤوسهم من المال، نظير كفتنا عن قتالهم واسترقاقهم وحمايتنا لهم، من الجزاء بمعنى القضاء. أو من المجازاة بمعنى المكافأة، لأنهم يجزوننا عن الإحسان اليهم بذلك. "عن يد": عن طوع وانقياد. "وهم صاغرون": أذلاء. والدليل من أدله الله، والعزير من أعزّه الله..."<sup>5</sup>.

<sup>3</sup> المصدر السابق، ج1، ص 109

<sup>4</sup> المصدر السابق، ج1، ص 111

<sup>5</sup> المصدر السابق، ج1، ص 316 - 317

"يا أيها النبي جاهد الكفارَ والمنافقين واغلب عليهم وماؤهم جهنم وبئس المصير" (التوبة 73). يقول الشيخ مخلوف: "جاهد الكفار": بالقتال، "والمنافقين" باللسان والوعظ وإلزام الحجة. "وأغلب عليهم": "وشدد عليهم جميعا في الجهاد بقسميه"<sup>6</sup>.

وقد جرى في الاسلام تقليد لم يطبق دائما وهو أن "يتسامح" المسلمون مع المسيحيين فلا يقتلونهم ما دام هؤلاء يدفعون الجزية ويطيعون المسلمين ولا يفكرون بالتمرد عليهم أو بمناصرة أعدائهم.

ومع هذا "التسامح" يفرض القرآن "عزل" المسيحيين والاستتفاف عن مصادقتهم وتولييتهم أمورهم. "يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء. بعضهم أولياء بعض. ومن يتولهم منكم فإنه منهم. إن الله لا يهدي الثوم الظالمين" (المائدة 51). يقول الشيخ مخلوف في شرحه للآية: "لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء": نهى الله المؤمنين أن يتخذ أحد منهم أحدا من اليهود والنصارى وليا ونصيرا، أي لا تصافوهم مصافاة الأحاب، ولا تستنصروا بهم، فإنهم جميعا يد واحدة عليكم، ييغونكم الغوائل ويتربصون بكم الدوائر، فكيف يتوهم بينكم وبينهم موالاة؟ "ومن يتولهم منكم فإنه منهم": أي من جملتهم وحكمه حكمهم"<sup>7</sup>.

"يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا الكافرين أولياء من دون المؤمنين. أتريدون أن تجعلوا الله عليكم سلطانا مبينا" (النساء 144).

ولا يألو القرآن جهدا من التأكيد أن الاسلام وحده هو الدين الحقيقي. "ومن يتبع غير الاسلام دينا فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين" (آل عمران 85). "ورضيت لكم اسلام دينا" (المائدة 3). "إن الدين عند الله الإسلام" (آل عمران 19).

هذه، باختصار، المنطلقات الدينية في نظرة الاسلام الى أهل الكتاب، ومن بينهم الى المسيحيين. وهذا يعني أن المسيحيين الذين اطلعوا على الرسالة ورفضوا الدخول فيها إنما هم كفار ومشركون.

وبمعنى آخر، إن مسيحيي لبنان، فضلا عن سائر المسيحيين، هم كفار ومشركون. والكافر أو المشرك لا يوازي المؤمن ولا يساويه. وفي ضوء هذا الموقف الديني العقائدي نفهم معاملة المسلمين للمسيحيين في خلال التاريخ، وموقع المسيحيين في الدولة الاسلامية.

<sup>6</sup> المصدر السابق، ج1، ص 327

<sup>7</sup> المصدر السابق، ج1، ص 196